

ونهاية . وحين يكون الحب خالصاً لوجه الحبيب فقد بلغ القدرة وأشرف على الأوج ؛ وحين تكون الحياة تطرفاً في شوطها الأول فهي تطرف في شوطها الأخير ، سواء أ كان التطرف مصدره الاعتدال هنا أم كان مصدره الانحراف هناك !

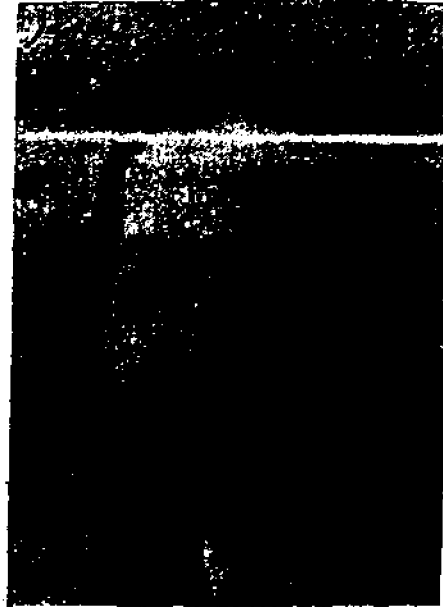
وهكذا كانت رابعة المدوية ... وهكذا كانت عاشقة السماء . عاشت في عصر يحفل بالشذوذ ويمج بالتناقضات ، عصر أنبل فيه أناس على الرذيلة حتى ما يردعهم رادع من دين وحتى ما يزجرهم زاجر من خلق ؛ فليعلم إغراق في الإنهم ونهارهم إيمان في المعصية وأقبل غيرهم على الفضيلة متى ما شهدا قلوبهم من خوف وما تسكن نفوسهم من قلق ، فليعلم إنزال في التهجذ ونهارهم إصراف في البكاء وكانت البصرة في القرن الثاني للهجرة موطناً لأولئك كما كانت موطناً لهؤلاء ... وإلى المتطرفين في الضلال والوزير سلكت رابعة أول الطريق ، وإلى المتطرفين في الإيمان والزهد بلغت من هذا الطريق مثتها .

انحدرت من سلب أبوين فقيرين ؛ لم يجدا أيلة مولدها شيئاً مما ياف به كل ولید ... وكانت مولدة لآل عتيك ، وإلى بطن من بطون قيس تنسب هذه القبيلة كما تنسب إليها قبيلة أخرى هي بنو عدوة ، ومن هنا سميت عند بعض المؤرخين برابعة القيسية وسميت عند البعض الآخر برابعة المدوية . وحين اكتملت لها الأنوثة ونضجت فيها الفتاة . فقدت المائل في شخص الأب حين مات وحرمت أسباب البقاء في البصرة حين أسابها القحط .. فهامت على رءوسها تلتطمس المأوى الذي يرد عنها غائلة الجوع ويدفع صارة الحرمان . ولكن الأمر ينتهي بها إلى أن تقع في يد من يذيقها ذل الأمر ووطأة الرق وحرقة الهوان !

وهناك ، في ذلك السجن القوي لقيت بين جدوانه ألواناً من العلم وفنوناً من الظلام ، رفت روحها في سماء الحبيب أول رقة ، وهمس صوتها أول همسة ، وانطلقت من بين الجوانح أول مناجاة « الهني ! أنا غريبة بتيمة ، أرسف في قيود الرق ، ولكن غمي الكبير هو أن أعرف : أراض أنت عني أم غير راض ؟ » وبجيبها صوت لا تعرف مصدره ، ولكن فيه الأمن للخائف والأمل لليائس والمدلل للمظلوم : « لا تحزني ! ففي يوم الحساب يتطلع القربون في السماء إليك ويحسدونك على ما تكونين فيه » !

إيمان عظيم

لأساتذ أنور المعداوي



اسرأة أحببت
كل الحب، وآمنت
كل الإيمان بمن
تحب ... وكانت
عاشقة برح بها
المشق فأذبل منها
العيون وقرح
الجفون وأحال ليلها
سهداً امتصلاً برفقه
الشوق ؛ وحنينا
مضطرباً يلهمه
الوجد ؛ وهياماً
تكفر فيه الجنوب

بالمضاجع ونسج الدموع !

كان حياً عظيماً لأنه وليد إيمان عظيم ... وهكذا تجدد الحب الصادق في أرفع منازل وأعمن منابه وأنبل معانيه ؛ لم تشوه من جلاله غاية ، ولم تهب بطهره غواية ، ولم يرق إلى سمائه جناح في دنيا المحبين !

وما كان أعجبها قصة حب ... بل وما كان أعجبها قصة حياة ! حب لم يكن الباعث عليه شيئاً من الترهيب أو شيئاً من الترغيب ؛ وحياة ما أبعد الشقة فيها بين طرفين ، وما أكثر التنافر بين بداية

عداس : -

المجيد لله القوى والمسيح الأعلب
آمنت أن الضيف هـ هذا هو نحر العرب
وأن فيه آية نذل أنه النبي ...

هتبه وشيبة في ذهول :

نذل أنه النبي ؟؟ نذل أنه النبي ؟؟

محمد هب النبي مسمى

لهذا الحب المثالي الذي ينشده الفن خالصا من الشوائب وتبتيه
الإنسانية مبرا من الأهواء . . . وإذن فلا مناص من أن نولى
الفنانة الانسانية وجهها شطر السماء !

وبدأت نقطة التحول في حياة رابعة . . . إن الماضي الجليل
في كنف الحبيب الأعظم لا يزال بطل بذكرياته من خلف ستار
الضباب ، وإن القلب المعنى لا يزال يبعث عن قطرة ماء يمكن
أن تعاقب ظمأ هواه ، وإن الخيال الحائر لا يزال يرقب الأفق
البعيد في لهفة المتطلع إلى ما وراء النمام . ومرة أخرى يمتد ذلك
الخيوط الالهى غير المنظور ، وتتعلق به رابعة لتصمد إلى السماء
متكئة على يد الله !

وكان حبا عظيما لأنه وليد إيمان عظيم . . . وإذا ما أحببت
الراة من أعماق قلبها فلا تنى في الدنيا بصرفها عن هذا الحب ،
مهما اعترضت طريقها المحن وامتنحت روحها المغريات إنها تؤمن
بحبها هذا الإيمان الخالص تبذله من ذات نفسها دون أن تنتظر
عليه شيئا من الأجر أو أشياء من العوض . حسبها أن تهب قلبها
لأن تحب ، وحسبها أن تفي فيه وتذله الحياة ، وحسبها أن
تخرج من هذا الفناء بكثير من العزاء !

وانها اتقدم الدليل من نثرها حيث تناجيه في هدأة الليل
والناس نيام : « إلهى ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ،
وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى
بين يديك » . . . فإذا أسفر الصبح هفت في موكب الشجن
وقدة الهيام : « إلهى ! هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد
أسفر ، فليت شمعى : أقبلت منى ليلتى فأهنا ، أم رددتها على
فأشقى ؟ ! فوعزت لك هذا دأبى ما أحييتنى وأعتقتى ، ولو طردتني —
عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبى من محبتك » . . . وإنها
لتقدم الدليل من شعرها مرة أخرى حيث تقول :

أحبك حبين حب الهوى وحب لأنك أهل لنا
فأما الذى هو حب الهوى فذكر شملت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له

لكشفك لالحجب حتى أراكا
فأالحمد فى ذا ، ولا ذاك لى ولكن الحمد فى ذا وذاك
وتسوق بعض المصادر هذه الأبيات في موقف اللقاء بينها

وامتد أول خيط تعلقت به رابعة لتصمد إلى السماء متكئة
على يد الله ! !

وكانت لحظة من لحظات الانقلاب في حياة تلك الصوفية
المؤمنة ، ابتدأت بالصوم والتهجد وقيام الليل ، وانتهت بالتحرر
من هذا الرق الذى عصف بكل بقية من أمل لولا رعاية السماء . .
لقد رآها سيدها ذات ليلة ساجدة تسمى واستمع إليها مبتهلة تقول :
« إلهى ! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك ، ونور عينى في خدمة
عبيتك ، ولو كان الأمر بيدي لسا انقطعت لحظة عن خدمتك ،
ولكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبدتك » !
وانبثق في هذه الرة ضوء كما انطلق في الرة السابقة صوت ،
وكلاهما لا تعرف مصدره ولكن فيه الأمن للخائف والأمل لليائس
والعدل للظالم . . . وإذا بسيدتها مرتاع النفس ملتاع الضمير ،
يقضى الليل كله ، وورق الجفن مضطرب الضجيج يريد أن ينتهى
في أمرها إلى قرار . فإذا كان النهار مضى إليها ليقول : « أى رابعة !
لقد وهبتك الحرية . فإن شئت بقيت هنا ونحن جميعا في خدمتك ،
وإن شئت رحلت أنى رغبت » . . . وانطلقت رابعة إلى هناك ،
إلى حيث تقطف من رياض الحرية كل زهرة ، وتعب من
بتاييمها كل قطرة ، وتستروح من أنسامها كل رضى طيب .

ولا ندرى لم تحلت فيها يد الله فنصحت رسالة الإيمان لتتبع
خطوات الشيطان ؟ ولكنها لم تتخل عنها إلا إلى حين ، لتعود
بعد ذلك أكثر ما تكون تعلقا به وحنينا إليه وتهالكا عليه . .
لقد اتخذت رابعة من مهنة العزف والفناء وسيلة لكسب العيش
والسعى وراء الرزق ، وهى وسيلة لم تكن مأمونة العواقب على
كل حال ، لأنها دفعت بصاحبها إلى أن تنفى مجالس فيها اللهو
والعبث والمجون ، وفيها المشاركة في اللذات والانفاس في الشهوات
ولا مناص عندئذ من الاستجابة لفنون الاغراء شأن كل جميلة
من بنات حواء ، وبخاصة إذا ما كانت صاحبة مزاج شاعرى كراج
رابعة ، تقوده رهافة الحس وصفاء الطبع وجروح الخيال !

كانت فنانة ، وكانت إنسانة . . . وفى الفز تسطح ومضات
الرؤى ويتوهج الأحلام ، وفى الإنسانية تشف نبضات الهوى
وتفيض منابع الإلهام ؛ وبهذين السلاحين راحت رابعة تشق
صفوف البشر باحثه عن حبيب ! ولكن الأرض ليست موطنها

تعبده عبادة الذين يرون وجهه : « يا إلهي ! إذا كنت أعبدك خوف النار فأحرقني ، بئارك ، أو طمعا في الجنة لحرق على جنتك ، وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمني جمال وجهك » ..

ويا له من حب ذلك الذي أذبل منها العيون وقرح الجفون ، وأحال ليلاها سهداً متصلاً يرفده الشوق ، وحنيناً مضطرباً يلهب الوجد ، وهياماً تكفر فيه الجفون بالمضاجع ، وتسيح الدموع !

وما أروع العقاب حين يصل الحب من نفس حبيبه إلى المكان الذي يؤثره وبرضاه ، هنالك ترفع السكفة ويفسح الطريق وينبع الفجر الإلهي لكل مقال يقتضيه مقام ، ولو كان اعتراضاً مذهباً أو غير مذهب في رأي الذين لا يشعرون ... وإذا ما اعترضت رابطة على حكم القدر فلا تغرب عليها ولا جناح ، لأنها في موقف النجوى التي يطلقها القلب المقعم بصدق الحب وحرارة الولاء ، أو في لحظة الهوى العارم التي يخفت فيها صوت الشعور والوجدان ؛ ولن يضيق حلم الخالق العظيم بصيحة تنبث من فجاج روح كم قدمت إلى ربها صوراً فائقة من أدب الخطاب ، روح تلك الصوفية المؤمنة التي قال عنها مالك بن دينار : « أيتها فإذا هي تقول : كم من شهوة ذهبت لفتها وبقيت تيمنها ... يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار » ١٤

لا يضيقني في رأي من هذا العقاب الذي خطر لها يوماً أن تتوجه به إلى رحاب الخالق العظيم ، لأن العقوبة الكبرى في منطق رابطة المدونة ليست النار التي تحرق الأجساد حين يحال بينها وبين جنته ، ولكنها النار التي تحرق القلوب حين يحال بينها وبين رضاه ... وهذا هو الجحيم الذي كانت تتصوره في عالمها الفكري الذي طبع جهاً بذلك الطابع الذي لا شبيه له ولا نظير !

ومع ذلك فقد ذهب بعض الغلاة إلى أن رابطة بهذا القول قد اجترأت على مقام الخالق العظيم ... ولكنهم في غمرة هذا القلق الحائر قد نسوا إن يذكرنا هذه الحقيقة : وهي أن رابطة قد مكنت أروبي سنة لا ترفع رأسها حياء من الله ! ١٥

أنور المراوي

وين « ذى النون المصري » حيث تطالعنا هذه القصة : « قال سعد بن عثمان : كنت مع ذى النون المصري رحمه الله في تيه بني إسرائيل ، وإذا بشخص قد أقبل ، فقلت : يا أستاذ ! شخص قد أتى . فقال لي : أنظر من هو ، فانه لا يضع أحد قدمه في هذا المكان إلا صديق . فنظرت فإذا هي امرأة ، فقلت : إنها امرأة . صديقة ورب الكعبة . فابتدر إليها وسلم عليها فقالت : ما للرجال ومخاطبة النساء ! فقال : أنا أخوك ذو النون ولست من أهل التهم . فقالت : مرحباً ! حياك الله بالسلام ! فقال لها : ما حلاك على الدخول في هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل — قوله تعالى : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ — فقال لها : صف لي الحجة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة ونسأني عنها ؟ ! فقال لها : لاسائل حق الجواب . فأشدت تقول :

أحبك حبين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاكا
هذه نماذج من النثر والشعر تصور هذا الحب الإلهي في إطاره الخالد ، وانها لقليل من كثير ... وأي إطار هو ؟ إنه إطار اللاهفة الضاربة التي تنشد الرضا عن هذا الحب ولا تنشد سواء ، وتلجأ إلى كل وسيلة من الوسائل بغية الكشف عن أثر البذل والتضحية في حساب الخالق العظيم ... وإنه لحساب لا يخطيء التقدير حين يزن بذل الباذلين وتضحية الصابرين ! وأي بذل وتضحية في حياة رابطة أبلغ من أن تقص خادمتها « عبدة » من أنبائها فتقول : « كانت رابطة تملئ الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجمة خفيفة ، فكنت أسمعاها تقول إذا وثبت من مرقدها وهي فزعة : يا نفس ! كم تنامين ، والى كم تقومين ؟ يوشك أن تنام نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور » ! أو أن تحدث هي عن نفسها فتقول : « إنى لأشعر باللقمة الطيبة أن أطمعها نفسي ، وإنى لأرى ذراعي قد سمن لأحزن » ! ... أو أن يقول عنها ابن منظور : « دخلت على رابطة وهي ساجدة ، فلما أحست بمكاني رفعت رأسها فإذا موضع سجودها كهيئة المستنقع من كثرة البكاء » !

ولم تكن تعبده رغبة في جنته ولا رهبة من ناره ، وإنما كانت